الحسن والخليفة الثالث

الحسن فى عهد عثمان شاب عمره ينيف على عشرين عاماً ، وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة ، وبمعنى آخر شاب يقظ تجلله نورانية الإيمان بما هذب منه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصقل منه الإمام على رضى الله عنه وأرهفت منه فاطمة ، وبأن قد صار إنساناً باراً يندفع فى سبيل الله ، فدخل الحسن فى دوره هذا ميدان الجهاد ، فانضم إلى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم الفاتحة إلى احتلال أفريقيا ، فانخرط فى الجيش ويسير إلى المغرب فيدخل مع الفاتحين له ما لهم وعليه ما عليهم . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اتجه الحسن إلى عاصمة جده صلى الله عليه وسلم والنصر حليفه وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الإسلامى وانتشار دين جده العظيم .

على أن ما يعنينى أن أبرزه هو الخلاف على موقف الحسن رضى الله عنه فى المحنة التى اجتازها الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه والتى انتهت بقتله . يقول عميد الأدب العربى المغفور له الدكتور طه حسين : (وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة على كُره منه فى أكبر الظن ، قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك المعارضة حين عظم الشر ،

وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته ، ولكن الخليفة قتل على الرغم من ذلك لأن خصمه تسوروا عليه الدار ولم يكن الحسن يرى أن يشترك أبوه فى شيء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد ، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم فى ماله بينبع ، فلم يسمع علىّ له وإنما رأى أن مكانه فى المدينة حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس ، فلما قتل عثمان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم فى المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه – ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالها كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي ولكنه عرف لأبيه حقَّه عليه فأقام معه وشهد مشاهده كلها على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه ، ثم لم يكن الحسن يرى لأبيه أن يترك مُهاجَره فى المدينة وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة ، وإنما كان يؤثر له أن يبقى فى مُهاجره مجاوراً النبي ويكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت بمَضيعة ، وكان أبوه يعصيه فى كل ما كان يشير عليه من ذلك حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق فقال له أبوه (إنك لتحن حنين الجارية) .

ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان فكان عثمانيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إلا أنه لم يَسُل سيفاً للثأر بعثمان لأنه لم ير ذلك حقًّا له ، وربما غالى فى عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم مالا يحب . فقد روى الرواة أن عليًّا مر بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : (أسبغ الوضوء) فأجابه الحسن بهذه

الكلمة المُرة : (لقد قتلتم بالأمس رجلاً كان يُسبغ الوضوء) ، فلم يزد علىّ على أن قال : (لقد أطال الله حزنك على عثمان) .

أما الشيعة فيخالفون الدكتور طه حسين الرأى فيما قال (إن الحسن كان عثمانيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة) ، ويرون أن الحسن كان من جملة الناقدين والناقمين على عثمان ، فقد رأى ما لاقاه حزب أبيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال ويضربون بما لاقاه وما تعرض له أمثال عمار ابن ياسر وأبى ذر – فقد ضرب عمار بن ياسر وغشى عليه ، ومن رأى الشيعة أن الخليفة الثالث لم يرع حق عمار وهو فى طليعة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى إيمانه بالله وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ضرب الرقم القياسى للعقيدة والإيمان . ويقولون إن الصحابى أبا ذر اندفع إلى نكران سياسة عثمان فأمر الخليفة الناس أن لا يجالسوا أبا ذر ولا يكلموه ، وقال له أبو ذر : (ويحك يا عثمان أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت أبا بكر وعمر – هل رأيت هذا هديهم ؟ إنك لتبطش بى بطش الجبارين) فقال له عثمان : (اخرج عنا من بلادنا) ، فقال له أبو ذر : ما أبغض جوارك إلى فإلى أين أخرج ؟ – قال حيث شئت ، قال فأخرج إلى الشام أرض الجهاد قال له : إنما جلبتك من الشام لأنك أفسدتها فكيف أردك إليها قال فأخرج إلى العراق ، قال لا ، وأخيراً أمره بالخروج إلى الربذة (بالقرب من المدينة) . وكان فى توديع أبى ذر الإمام على وعقيل وعبد الله ابن جعفر والحسن والحسين ، وألقى الحسن رضى الله عنه كلمة توديع قال

فيها : (ياعماه لولا أنه لا ينبغى للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف ، وقد أتى من القوم إليك ما ترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راض) . ورد عليه أبو ذر قائلا : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة – إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين[1] فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

ويسوق الشيعة الكثير ليدللوا على ما لاقاه بعض الصحابة من العنت من جانب الخليفة الثالث وأن هذا لا يتفق مع قول عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين إن الإمام الحسن كان عثمانيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . ويقولون إن الإمام الحسن كان من جملة الناقدين للخليفة لأنه رأى ما لاقاه حزب أبيه من التحطيم والتعذيب والإرهاب والاعتقال وشاهد ما لاقاه أبوه الإمام علىّ من الاستهانة بحقه .

ومرة أخرى لا يوافق الشيعة على ما رواه المسعودى من أنه لما اندلعت نيران الثورة عزم الثائرون على قتل الخليفة بعد ما حاصروه أمداً غير يسير .

---

(١) المصرين البصرة ومصر وكان والى البصرة عبد الله بن عامر ووالى مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح .

والذى رواه المسعودى كما جاء فى مروج الذهب أن الإمام علياً بعث الحسن والحسين للدفاع عن عثمان لما بلغه أن القوم قد عزموا على قتله . ويؤيد الدكتور طه حسين رواية المسعودى فيقول : (وقد اجتمع القادرون على القتال من بنى أمية وانضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثـــائرين وكان فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا على ومحمد بن طلحة . . .) .

ويدلل الشيعة على أن رواية المسعودى غير صحيحة إلى استبعاد انفصال الحسن وأبيه الإمام عن البقية الصالحة من المهاجرين والأنصار ، فإن التاريخ فى رأيهم لم يحدث أنهم ثاروا لعثمان أو خذلوا الثائرين عنه ، مع العلم أن مدة الحصار على رواية المسعودى تسعة وأربعون يوماً . ولم تظهر من الصحابة طيلة تلك المدة بادرة من بوادر المساعدة والمؤازرة ولو كانوا غير راضين بالأمـر لامتمكن الثائرون من فعل أى شىء فإن عددهم لم يك خطيراً حتى لا يتمكنوا من القضاء عليهم . ويرى الشيعة أنهم كانوا يزيدون الثائرين حماساً ويمجدون نهضتهم ولا يختص ذلك بطائفة دون أخرى ، ويصلون فى النهاية إلى أن موقف الحسن للدفاع عن عثمان محل شك وريبة .

على أن الدكتور محمد الصادق فى كتابه (علىّ والحاكمون) يقول تحت عنوان (مقتل عثمان) : فلما جاءته وفود الأمصار تشكو إليه عماله واستبدادهم وركوبهم الأهواء راجين أن ينصفهم بعض الإنصاف الذى كان

بعهد الأولين فوعدهم خيراً فى ظاهر الأمر وبطن لهم حيلة القضاء على قادة الوفود ، فلما كانوا فى بعض الطريق إلى ديارهم ضبطوا كتاباً من مروان ابن الحكم يأمر به العمال بقتل زعماء الوفود ساعة يصلون ، فارتدوا حينذاك إلى المدينة وطلبوا من عثمان مشيره الأول هذا الكذاب الأشر ، طلبوا إليه أن يسلمهم مروان – فأبى وأصروا – وأصر ألا يجيب لهم طلباً ، واشتد سخطهم وزادت بهم النقمة حتى اضطر الخليفة إلى ملازمة داره أربعين يوماً ، وعلى بن أبى طالب يسعى طيلة هذه الأيام أن يحسم مادة الخلاف بطريقة صالحة يقرها المنطق الصحيح ، فقال له : (إن الناس ورائى) ذلك النصح البالغ السالف فلم ينفعه إلا عناداً وإصراراً . .

ثم قوى جانب الوفود الانقلابيين حتى انضم إليهم خلق كثير من العاصمة وغيرها ، وحاصروا قصر الخلافة بكل ضراوة وشراسة ، فلما تعاظم الخطر على من فى الدار تخلى عن الخليفة حتى أبناء عائلته الأمويين الذى كانوا هم السبب الرئيسى فيما صار إليه أمره وأمر المسلمين . فآثروا أن يهربوا خفية إلى الشام حيث ينتظرهم نسيبهم معاوية عامل الخليفة عليها ، وبقى الحسنان على رأس القوم الذين يلازمون أبواب دار الخلافة لعلهم يمنعون عن الخليفة الأذى وسوء المصير حتى يخرج من مظالم الناس . .

وقد قيل إنه لما طال حصار الثوار لدار عثمان وساءت معاملتهم له فمنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وحالوا دون وصول الماء إليه . أرسل عثمان إلى بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمهات

المؤمنين يطلب إليهم أن يمدوه بحاجته من الماء ، فسارع الإمام على إلى تلبية رغبته وأقبل على الثوار ، وقيل إنه قال لهم : (إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فيم تستحلون حصره وقتله) .

وقيل إنه لما مات الخليفة لم يسمح الثوار فى بادئ الأمر بدفنه فظل ثلاثة أيام دون دفن ، وطلب بعض القرشيين من الإمام على أن يتوسط لدى الثوار ليسمحوا بمواراة جثمانه التراب فأذنوا بدفنه ، ولم يشهد جنازته سوى مروان بن الحكم وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة العدوى ونيار بن مكرم وزوجتى عثمان .

وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة فنهرهم الإمام على .

وحفظ الإمام الحسن رضى الله عنه وعمره أربع سنين الشىء الكثير مما سمعه من جده ومما قاله :

١ – علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولها فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت » .

٢ – وروى عمير بن مأمون قال : سمعت الحسن بن على يقول : من

صلى صلاة الغداة فجلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار أو قال : ستر من النار .

٣ – وسئل رضى الله عنه عما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعته يقول لرجل « دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الشر ريبة والخير طمأنينة » .

٤ – وقال له بعض أصحابه : ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : أخذت تمرة من تمر الصدقة ، فتركتها فى فمى فنزعها بلعابها ، فقيل يا رسول الله ، ما كان عليك من هذه التمرة ، قال إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة .

٥ – وعن خلق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الإمام الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سأله أحد حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول .

٦ – عندما غضب سيدنا عثمان رضى الله عنه على أبى ذر ، ورأى إبعاده ، فأخرجه من المدينة ، وبادر الإمام الحسن إلى توديعه قائلا : « يا عماه لولا أنه ينبغى للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام ، وإن طال الأسف وقد أتى القوم إليك ما ترى فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد فيها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عليك راض » .

وقد رد أبو ذر فقال : « رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم

ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسد الناس عليهما فسيرنى إلى بلد ليس لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلاّ الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة » .

زوجاته

عرف الإمام الحسن رضى الله عنه بحسن عشرته لأزواجه فكان يمسكهن بمعروف ويسرحهن بإحسان وكان الناس يرغبون فى مصاهرته . وروى أبوالفرج فى الأغانى بسنده عن عوف بن خارجة قال : « والله إنى لعند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته إذ أقبل رجل يتخطى رقاب الناس حتى قام بين يدى عمر فحياه بتحية الخلافة .

فقال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا امرؤ نصرانى ، أنا امرؤ القيس ابن عدى الكلبى . قال : فما تريد ؟ قال : أريد الإسلام . فعرضه عليه عمر رضى الله عنه ، فقبله ثم دعا له برمح فعقد له على من أسلم بالشام من قضاعة فأدبر الشيخ واللواء يهتز على رأسه .

قال عوف فوالله ما رأيت رجلا لم يصل لله ركعة قط أمر على جماعة المسلمين قبله ونهض على بن أبى طالب رضوان الله عليه من المجلس ، ومعه ابناه الحسن والحسين عليهم السلام حتى أدركه فأخذ بثيابه .

فقال له : « يا عم أنا على بن أبى طالب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ، وهذان ابناى الحسن والحسين من ابنته ، وقد رغبنا فى صهرك فأنكحنا فقال : قد أنكحتك يا على المحياة بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس ، وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس (أم السيدة سكينة) » .

وقال هشام الكلبى : كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن . وسنرى فى الفصل القادم أنها خطبت بعد قتل الإمام الحسين ، فقالت : « ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد تزوج خولة بنت منظور الفزارية ، وجعدة بنت الأشعث ، وأم كلثوم بنت القضل بن العباس ، وأم إسحاق بنت طلحة ، وولدت منه ولداً سماه طلحة ، وأم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى ولدت منه زيداً ، وهند بنت عبد الرحمن بن أبى بكر ، وحفصة ابنة عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وغيرهن ومجموع ما تزوجه لم يتجاوز خمسة عشر ، وهو رقم لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولا يمت إلى ما زعمه بعض المستشرقين من أن عدد زوجاته وصل إلى المائة ، ويعيب بعض قصار الإدراك كثرة زواجه وطلاقه مع أنى – كما بينت – أعتبر عدد مرات زواجه عادياً مثل الذى كان يحدث فى زمانه ، ولست أدرى من أين جاءت هذه الكثرة التى يتحدث عنها رجال التاريخ والمستشرقون كما سنرى بعد قليل وينسى هؤلاء جميعاً أن الزواج فى زمانهم كان يربط العصبيات ويزيد فى قوة

القبائل ، وكان تعدد الزواج أمراً مألوفاً بل مستحبًّا وهو فى بيت النبوة أكثر استحباباً ، وليس مع الحلال تهمة ، وما أحوج المجتمع لأئمة الهدى الذين يمشون بين الناس بنور الإيمان الذى يرقونه من عرقهم الطاهر المطهر ، وينمونه فى بيئتهم النقية الصالحة .

وصدق الإمام على كرم الله وجهه حينما قال فى السادة آل البيت الأطهار : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون فى العلم دوننا كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى » .

وصدق الفرزدق حين قال :

إن عـــد أهل التقى كانوا أئمتهم
أو قيل من خير أهل الأرض قيل هُمُ

وينتهز (لامنس) هذه الفرصة ليتحدى الإسلام ليلصق به التهم ويطعن فى رجاله ، وقد كتب فى بحثه عن أزواج الإمام : « ولما تجاوز (يعنى الإمام الحسن رضى الله عنه) الشباب وقد أنفق خير سنى شبابه فى الزواج والطلاق فأحصى له حوالى المائة زوجة وألصقت به هذه الأخلاق السائبة لقب المطلاق ، وأوقعت عليًّا فى خصومات عنيفة وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السرف ، وقد خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم ، وهكذا نرى كيف يبعثر المال أيام خلافة علىّ التى اشتد فيها الفقر . . . »

وقد اعتمد لامنس فى قوله : « إن الإمام كان كثير الزواج والطلاق » على

أقوال المدائني وأمثاله من المؤرخين الذين تابعوا السلطة الحاكمة فكتبوا لها لا للتاريخ .

وقد استقى المستشرقون الذين كادوا للإسلام في بحوثهم من منهل المؤرخين الذين ساندوا تلك الدول الجائرة التي ناهضت أهل البيت وعملت على تشويه واقعهم والحط من كرامتهم ، وقد زاد عليه لامنس فذكر من الأكاذيب ما لم يقل به أحد غيره فقد قال :

١ – إنه ألقى أباه بسبب كثرة زواجه وطلاقه في خصومات عنيفة ولم يشر أحد ممن ترجم الإمام إلى تلك الخصومات العنيفة التي زعمها لامنس .

٢ – وذكر أن الإمام خصص لكل من زوجاته مسكناً ذا خدم وحشم .

وأن جميع المؤرخين لم ينقلوا ذلك ، وهو من الكذب السافر والافتراء المحض لقد كان زواج الإمام الحسن ليس الزواج الذي يختص به الرجل لمشاركة حياته ، وإنما كانت حوادث استدعتها ظروف شرعية محضة ، من شأنها أن يكثر فيها الزواج والطلاق معاً ، وذلك هو دليل سمتها الخاصة .

ونعود إلى زوجاته ، فأما « خولة بنت منظور الفزارية » فهي من سيدات النساء في وفور عقلها وكمالها تزوج بها كما سأبين فيما بعد ، فقيل إنه ليلة اقترانه بها بات معها على سطح الدار فشدت خمارها برجله وشدت الطرف الآخر بخلخالها فلما استيقظ وجد ذلك فسألها عنه فقالت له معربة عن إخلاصها وحرصها على حياته : « خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم سخلة على العرب » ، فلما رأى منها ذلك أحبها وأقام عندها

سبعة أيام ، وقد بقيت عنده حولا لم تتزين ولم تكتحل حتى رزقت منه السيد (الحسن) فتزينت فدخل عليها الإمام فرآها متزينة فقال لها « ما هذا » فقالت له : « خفت أن أتزين وأتصنع فتقول النساء تجملت فلم تر عنده شيئاً فأما وقد رزقت ولداً فلا أبالى » .

وبقيت عنده إلى أن توفى فجزعت عليه جزعاً شديداً ، فقال لها أبوها مسلياً :

نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نوائب الدهر

لا تجزعى يا خـول واصطبرى ... إن الكرام بنوا على الصبر

وذكرت السيدة زينب بنت علىّ العاملية فى ترجمة خولة ما حاصله أنها لما بلغت مبالغ النساء خطبها جملة من وجهاء قريش وأشرافهم ، فامتنع أبوها من إجابتهم لأنهم ليسوا بأكفاء لها ، ثم إنه طلق أمها (مليكة بنت خارجة) فتزوجها من بعده طلحة بن عبيد الله ، وتزوج ابنه محمد بخولة فولدت له إبراهيم وداود وأم القاسم ، وقتل زوجها محمد فى واقعة الجمل فخطبها جماعة من الناس فجعلت أمرها بيد الحسن فتزوجها .

ويروى أنه لما نزح الإمام إلى يثرب حملها معه ، فبلغ أباها ذلك فأقبل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده راية فركزها فى المسجد ، فلم يبق قيسى إلا وانضم تحتها وهو يهتف بقومه ويستنجد بهم على أخذ بنته من الإمام ، فلما بلغه رضى الله عنه ذلك خلى سراحها فأخذها وخرج ، فجعلت خولة تتوسل به على إرجاعها وتندد بعمله وتذكر له فضل الإمام ، فندم

على فعله وقال لها « البثى ها هنا فإن كان للرجل بك من حاجة سيلحق بك » . فلحقه الإمام مع أخيه الحسين وعبد الله بن عباس ، فلما انتهوا إليه قابلهم بحفاوة وأرجعها إلى الإمام . وهذه القصة مشكوك فى صحتها .

أما « جعدة بنت الأشعث » فقد اختلف المؤرخون فى اسمها ، فقيل سكينة ، وقيل شعثاء ، وقيل عائشة ، والأصح أنها جعدة حسب ما ذكره أكثر المؤرخين وكما جاء فى مقاتل الطالبيين .

أما « عائشة الخثعمية » وقد تزوجها الإمام الحسن فى حياة والده ولما قتل علىّ أقبلت إلى الإمام الحسن فأظهرت الشماتة بوفاة أبيه .

فقالت له : « لتهنك الخلافة » .

ولما علم عليه السلام شماتتها قال لها : « ألقتل علىّ تظهرين الشماتة ، اذهبى فأنت طالق » فتلفعت بثيابها وقعدت حتى انقضت عدتها ، فبعث لها بقية صداقها وعشرة آلاف درهم صدقة لتستعين بها على أمورها ، فلما وصلت إليها ، قالت : « متاع قليل من حبيب مفارق » ولم يذكر التاريخ أن الإمام طلق زوجة سوى هذه وأم كلثوم وامرأة من بنى شيبان .

أما بقية زوجاته فقيل هم : أم كلثوم بنت الفضل بن عباس ، وفى الاستيعاب أن الأمام الحسن تزوجها ، ثم فارقها فتزوجها من بعده أبو موسى الأشعرى ، ثم أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمى وقد ولدت منه ولداً أسماه طلحة ، وأم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى وولدها زيد ، وهند بنت عبد الرحمن بن أبى بكر وامرأة من بنات عمرو بن أهيم المنقرى ،

وامرأة من ثقيف وولدها عمر ، وامرأة من بنات زارة ، وامرأة من بنى شيبان من آل همام بن مرة فقيل له إنها ترى رأى الخوارج فطلقها وقال : « إنى أكره أن أضم إلى نحرى جمرة من جمر جهنم »[١] وأم عبد الله ، وهى بنت الشليل بن عبد الله أخى جرير البجلى ، وأم القاسم .

وبذلك يكون مجموع ما تزوجه الإمام الحسن هذا العدد الذى ذكرناه وهو لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة ، ولنا أن نسأل أين كثرة الزواج والطلاق التى طبل لها بعض المؤرخين .

وإذا كان هناك تعدد لزواجه فيجب الحكم على ذلك فى ظل الظروف التى كان يعيش فيها ، فإذا كان قد تزوج أكثر من مرة فإنه يقصد بهذا التعدد الإصهار إلى كثير من القبائل لأن الحاكم على حد تعبير ابن خلدون يستند إلى عصبية ، ولما كان بنو أمية لم ينتصروا ويتمكنوا فى الأرض إلا بما توافر لديهم من عصبية فقد أدرك الحسن بما قد يتعرض له ذووه وذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول من الاندثار والانقراض إلا تعدد الزواج وكثرة النسل[٢].

أولاده

اختلف المؤرخون فى عدد أولاده اختلافاً كثيراً ، فقد روى أنهم اثنا عشر

---

(١) شرح ابن أبى الحديد .

(٢) نظرية الإمامة للدكتور أحمد محمود صبحى .

« ثمانية ذكور وأربع أناث » وقيل ستة عشر الذكور أحد عشر والإناث خمس ، وقيل غير ذلك وقد اتفق المؤرخين أنه لم يعقب أحد من أولاده سوى الحسن وزيد .

أما أعلام أولاده فهم :

١ – القاسم : وقد استشهد مع عمه سيد الشهداء فى واقعة كربلاء .

٢ – أبو بكر : واسمه عبد الله ، أمه أم ولد ويقال لها رملة ، برز يوم الطف يحامى عن دين الله ويذب عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشهد فى تلك الواقعة .

٣ – عبد الله : استشهد مع عمه فى كارثة كربلاء ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ، نظر إلى عمه الحسين وقد أحاطت به جيوش الأمويين ، فأقبل يشتد للدفاع عنه ، وسارع أبجر بن كعب بالسيف ليضرب الإمام الحسين ، فصاح به الغلام : « ويلك يا ابن الخبيثة أتضرب عمى » واتقى الغلام الضربة بيده ، ثم رماه حرملة بن كاهل بسهم فذبحه .

٤ – زيد : وقد كان كريم الطبع جليل القدر كثير الإحسان قصده الناس من جميع الآفاق لطلب بره ومعروفه ، وكان يلى صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ولى سليمان بن عبد الملك عزله منها . ولما هلك واستخلف عمر بن عبد العزيز أرجعها إليه .

وقد مدحه محمد بن بشير الخارجى بقوله :

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة نفى جدبها واخضرّ بالنبت عودها

وزيد ربيع الناس فى كل شتوة إذا أخلفت أنواؤها ورعودها
حمول لأشتات الديات كأنه سراج دجى قد فارقته سعودها

وكان يركب فيأتى سوق (الظهر) فيقف به فتزدحم الناس على النظر إليه ويعجبون من خلقه ، ويقولون يشبه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وله من العمر تسعون سنة ورثاه جماعة من الشعراء منهم قدامة بن موسى الحجمى بقوله :

فإن يك زيد غالت الأرض شخصه فقد بات معروف هناك وجود
وإن يك أمسى رهن رمس فقد ثوى به وهو محمود الفعال فقيد
سميع إلى المضطر يعلم أنه سيطلبه المعروف ثم يعود
وليس بقوال وقد حط رحله لملتمس المعروف أين تريد
إذا قصر الوعد الذى قد نمى به إلى المجد آباء له وجدود
مناديل للمولى محاشيد للقرى وفى الروع عند النائبات أسود
إذا مات منهم سيد قام سيد كريم فيبنى مجدهم ويشيد

٥ – الحسن : وقد حضر مع عمه الحسين عليه السلام فى واقعة كربلاء فقاتل معه حتى سقط جريحاً ثم أنقذ ورجع إلى المدينة وتزوج بابنة عمه (فاطمة بنت الحسين) .

وقيل توفى وعمره خمس وثلاثون سنة مسموماً وقد سقاه السم الوليد ابن عبد الملك .

أخلاقه

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى عظم أخلاقه مثالا للرحمة الإلهية التى تملأ القلوب البائسة الحزينة رجاء ورحمة ، وكان يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ويجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة مملوك ولا فقير ، ومن جالسه صابره حتى يكون جليسه هو المنصرف وما أخذ أحد بيده فجذبها منه حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها ، وكان حريصاً على تطييب النفوس واجتناب الإساءة لأى إنسان .

وكل هذه الأخلاق الرفيعة قد تمثلت فى الإمام الحسن بحكم ميراثه من جده العظيم صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر رجال التاريخ نوادر كثيرة من مكارم أخلاقه منها :

(ا) أنه مر على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق ، وهم يأكلون منها فدعوه إلى مشاركتهم فأجابهم إلى ذلك وهو يقول : « إن الله لا يحب المتكبرين » . ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم وأغدق عليهم بنعمه وإحسانه .

وصفة التواضع هذه تدل على كمال النفس وسموها وشرفها ، وفى الحديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » .

(ب) ومن آيات أخلاقه أنه مر على صبية يتناولون الطعام فدعوه

لمشاركتهم فأجابهم إلى ذلك ثم حملهم إلى منزله فمنحهم ببره ومعروفه ، وقال : (اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعمونى ونحن نجد مما أعطيناهم) .

(جـ) ومن مكارم أخلاقه أنه كان يقابل الإساءة بالإحسان فقد كان عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها فقال عليه السلام لغلامه :

– من فعل هذا بها ؟

– أنا

– لم ذلك ؟

– لأجلب لك الهم والغم .

فتبسم عليه السلام وقال له : لأسرك ، فأعتقه وأجزل له فى العطاء .

(د) ومن عظيم أخلاقه أنه كان جالساً فى مكان فأراد الانصراف منه فجاءه فقير فرحب به ولاطفه وقال له :

– إنك جلست على حين قيام منا أفتأذن لى بالانصراف .

– نعم يابن رسول الله .

ويدل ذلك على أن مراعاة حق الجليس من الآداب الاجتماعية التى توجب المحبة والألفة وتوجد التعاون والترابط بين الناس ، فلذلك أمر الإسلام بها وحث عليها .

(هـ) واجتاز على الإمام شخص من أهل الشام ممن غذاهم معاوية بالكراهية والحقد على آل البيت ، فجعل يكيل للإمام السب والشتم والإمام ساكت لم يرد عليه شيئاً من مقالته ، وبعد فراغه التفت الإمام فخاطبه بناعم

القول وقابله ببسمات فياضة بالبشر قائلا :

« أيها الشيخ : أظنك غريباً ، لو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ولو استحملتنا حملناك ، وإن كنت جائعاً أطعمناك ، وإن كنت محتاجاً أغنيناك وإن كنت طريداً آويناك » .

وما زال عليه السلام يلاطف هذا الشامى ليقلع روح العداء والشر من نفسه حتى ذهل ، ولم يطق رد الكلام وبقى حائراً خجلا كيف يعتذر للإمام ، وكيف يمحو الذنب عنه ، وطفق يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء » .

وهكذا كان الإمام الحسن رضى الله عنه مثالا للإنسانية الكريمة ورمزاً للخلق العظيم ، لا يثيره الغضب ولا يزعجه المكروه ، قد وضع نصب عينيه قوله تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وقد قابل جميع ما لاقاه من سوء أو أذى أو مكروه من الحاقدين عليه بالصبر والصفح الجميل ، حتى اعترف ألد خصومه مروان بن الحكم بسمو حلمه وعظيم خلقه ، وذلك حينما انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى ، فبادر مروان إلى حمل جثمانه .

فقال له سيد الشهداء : « تحمل اليوم سريره وقد كنت بالأمس تجرعه الغيظ » .

فقال : « إنى كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال » .

لقد كان الإمام كجده الرسول فى سعة حلمه وعظيم أخلاقه وصفحه عمن أساء إليه .

وقد روى التاريخ نوادر كثيرة من أخلاقه دلت على أنه فى طليعة الأخلاقيين والمساهمين فى بناء الأخلاق والآداب فى دنيا العرب والمسلمين .

جرأته

كان الإمام الحسن رضى الله عنه مع مسالمته يصون كرامته فى موقف الجد .

روى ابن أبى حديد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

دخل الحسن بن علىّ على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس فى مجلس ضيق فجلس عند رجليه ، فتحدث معاوية ما شاء أن يتحدث ، ثم قال : عجباً لعائشة تزعم أنى فى غير ما أنا أهله ، وأن الذى أصبحت فيه ليس لى بحق ، ومالها ولهذا ، يغفر الله لها ، إنما كان ينازعنى فى هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به .

فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية .

قال : أى والله .

قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟

قال : ما هو ؟

قال : جلوسك فى صدر المجلس وأنا عند رجليك .

فضحك معاوية وقال : يا ابن أخي بلغني أن عليك ديناً .

قال : إن لعليّ ديناً .

قال : كم هو ؟

قال : مائة ألف .

قال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ، مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها في أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ، فقم مكرماً واقبض صلتك .

فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية : تالله ما رأيت رجلا استقبلك بما استقبلك به ثم أمرت له بثلثمائة ألف .

قال : يا بني إن الحق حقهم ، فمن أتاك منهم فاحث له .

وكذلك جابه معاوية بأشد مما تقدم ، حين قام معاوية خطيباً على المنبر ، فتهكم على أمير المؤمنين الإمام عليّ ، وقال : من عليّ ؟

فقال الإمام الحسن : إن الله لم يبعث نبيًّا إلا جعل له عدوًّا من المنافقين ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين) ، وأنا ابن عليّ وأنت ابن صخر ، وأمك هند وأمي فاطمة ، وجدتك قتيلة وجدتي خديجة ، وجدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدك عتبة بن ربيعة فلعن الله ألأمنا حسباً وأخملنا ذكراً وأقدمنا كفراً وأشدنا نفاقاً .

فصاح أهل المسجد (آمين) .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : (وأنا أقول آمين) .

فقطع معاوية كلامه وفر إلى منزله .

والظاهر أن جرأة الإمام الحسن هى صفة لازمته منذ الصغر فقد دخل المسجد النبوى فى طفولته ولم يكن قد بلغ يومئذ الثامنة من عمره ، فرأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب على المنبر ، فهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى » .

فابتسم الصديق رضى الله عنه ، وقال فى حنان : « يا ابن بنت رسول الله ، صدقت والله ، ما كان لأبى منبر ، وإنه لمنبر أبيك » .

كرمه وسخاؤه

عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلقان يحبهما الله وهما حسن الخلق والسخاء » . وقال عليه الصلاة والسلام : « السخاء من الإيمان » . والسخاء ينم عن طيب القلب ، ويكشف عن الفضائل النفسية ، ويحكى عن رحمة الإنسان ورأفته ، ومن الطبيعى أنه إنما يكون كذلك فيما إذا كان بذله بداعى الخير والمعروف لا بداعى السمعة والمديح والثناء ، وغير ذلك من الدواعى التى لا تمت إلى الإحسان بصلة ، وقد حدث التاريخ عن أناس كانوا يهبون الألوف للوافدين ، ويبذلون القرى للأضياف ، ولكن سرعان ما انكشف أنه تصنع لا اتصال له بحقيقة الكرم والمعروف ، إن السخاء الحقيقى هو بذل الخير بداعى الخير ، وبذل الإحسان بداعى الإحسان ، وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام أبى

وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام أبى محمد عليه السلام ، حتى لقب بكريم أهل البيت .

وقد وصفه أبوه بالكرم والمسالمة ، فقد روى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيب الفزارى قال :

« سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : أنا أحدثكم عنى وعن أهل بيتى ، أما عبد الله ابن أخى (أى ابن جعفر زوج السيدة زينب) فصاحب لهو وسماح .

وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان ، فتى من فتيان قريش ، ولو التقت حلقتا البطلان[1] لم يغن عنكم شيئاً فى الحرب . وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا » .

وقد تلقى الإمام الحسن رضى الله عنه هذه المكرمة من سلفه الطاهر الذى عرف بالسخاء والمعروف ونجدة الضعيف والإحسان إلى كل منقطع ومحروم ، وفى جده الأعلى يقول القائل :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وكان الحسن لا يعرف للمال قيمة ولا يرى له أهمية سوى ما يرد به جوع جائع ، أويكسوبه عارياً ، أويغيث به ملهوفاً ، أويفى به دين غارم ، ومن كان ندىّ الكف مبسوط اليدين بالعطاء متمسكاً بأهداف السخاء بعيداً عن البخل وضروبه ، فأعظم به من خير عميم . قد كان السخاء عنصراً من عناصر ذات الحسن ومقوماً من مقومات مزاجه ، وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل لا قط ، وقيل له :

---

(١) مثل يضرب للأمر إذا اشتد أو جاوز الحد .

– لأى شيء لا نراك ترد سائلا ؟

فأجاب : « إنى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وإن الله عودنى عادة أن يفيض نعمه علىَّ ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعنى العادة » . وأنشأ يقول :

إذا ما أتانى سائل قلت مرحباً ... بمن فضله فرض على معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل ... وأفضل أيام الغنى حين يسأل

ويقول فى الجود والسخاء :

إن السخاء على العباد فريضة ... لله يقرأ فى كتاب محكم
وعدَ العباد الأسخياء جنانه ... وأعد للبخلاء نار جهنم
من كان لا تندى يداه بنائل ... للراغبين فليس ذاك بمسلم

وله أيضاً :

خلقت الخلائق من قدرة ... فمنهم سخى ومنهم بخيل
فأما السخى ففى راحة ... وأما البخيل فحزن طويل

وكانت الوفود من المرتزقة والمحتاجين تزدحم عليه ، فيغدق عليهم ببره وإحسانه ويجزل لهم المزيد من العطاء ، وقد ذكر التاريخ نوادر كثيرة من كرمه وجوده ، منها :

١ – جاءه أعرابى سائلا ، فقال : « أعطوه ما فى الخزانة » ، وكان فيها عشرة آلاف درهم .

فقال له الأعرابى : يا سيدى هلا تركتنى أبوح بحاجتى وأنشر مدحتى ؟

فأجابه الإمام :

نحن أناس نوالنا خضل ... يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً من ماء وجه من يسل
لو علم البحر فضل نائلنا ... لفاض من بعد فيضه خجل

٢ – واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة أخرى .

فقال له الإمام : ما حملك على ذلك ؟

– إنى لأستحى أن آكل ولا أطعمه .

رأى الإمام فيه خصلة من أحب الخصال عنده ، فأحب أن يجازيه على صنعه ويقابل إحسانه بإحسان ، فقال له :

– لا تبرح من مكانك . ثم انطلق فاشتراه من مولاه واشترى الحائط (البستان) الذى هو فيه فأعتقه وملكه إياه .

٣ – واجتاز يوماً فى بعض أزقة المدينة فسمع رجلا يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم ، فانطلق إلى بيته وأرسلها إليه بالوقت .

٤ – وجاءه شخص يظهر العوز والحاجة فقال له :

ما هذا حق سؤالك ، يعظم لدى معرفتى بما يجب لك ويكبر على ويدىّ تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك فإن قبلت منا الميسور ، ورفعت عنا مؤنة الاحتفال والاهتمام فعلت

فأجابه الرجل : يا بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل القليل وأشكر العطية واعذر على المنع .

فأحضر رضى الله عنه وكيله وحاسبه وقال له : (هات الفاضل) وكان الفاضل خمسين ألف درهم فدفعها إليه ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال لوكيله : ما فعلت بالخمسمائة دينار التى عندك ؟ فقال له : هى عندى فأمره بإحضارها ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر له .

إن قوله رضى الله عنه (الكثير فى ذات الله قليل) ينم عن أن هذا العطاء إنما هو فى سبيل الله تعالى لا يبتغى من أحد جزاء أو شكوراً .

٥ – ومن [١] مكارمه أنه خرج مع سيد الشهداء الإمام الحسين وابن عمهما عبد الله بن جعفر وافدين إلى بيت الله الحرام ، وفى أثناء الطريق أصابهم جوع وعطش وقد سبقتهم أثقالهم فانعطفوا على بيت قد ضرب أطنابه فى وسط تلك البيداء القاحلة ، فلما وصلوا إلى البيت لم يروا فيه إلا عجوزاً فطلبوا منها شراباً وطعاماً فأجابت بما طبعت عليه نفس الكريم قائلة : نعم . . إنها النفس إذا جبلت على الخير وطبعت فيها الأريحية قدمت فى سبيل العز والمجد كل ما تملك ، لم يك عند العجوز سوى شاة هى كل ما تملك مما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء .

فتقدمت وبيدها الشاة قائلة لهم :

(دونكم هذه الشاة فاحلبوها واشربوا لبنها) .

---

(١) حياة الإمام الحسن بن على للأستاذ باقر شريف .

فلما فعلوا ذلك تقدمت إليهم مرة أخرى قائلة :

(أقسم عليكم إلا ما ذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم الحطب لشيها)

ففعلوا ذلك وهيأت العجوز الحطب ، وبعد الفراغ من تناول الطعام عزموا على الرحيل فتقدموا إليها وعرفوها بشخصياتهم ليجازوها على صنعها خيراً إن رجعوا إلى وطنهم قائلين :

(يا أمة الله إنا نفر من قريش نريد حج بيت الله الحرام فإذا رجعنا سالمين فهلمى إلينا لنكافئك على هذا الصنيع الجميل) .

ثم انصرفوا لشأنهم ، ثم أقبل رب البيت فأخبرته العجوز بالقصة فاستولى عليه الغضب ذلك لأن الشاة هى مصدر القوت وإدرار الرزق عليهم .

فقال لها : (ويحك أتذبحين الشاه لأناس لا تعرفينهم ، ثم تقولين إنهم نفر من قريش) .

وسار الزمن فمضت سنة وأقبلت أخرى فصادفت البادية أزمة شديدة لأن السماء قد منعتها قطرها حتى قلت موارد العيش وانعدمت أسباب القوت ، فرحلا عن البادية ونزلا المدينة ولم يجدا عملا يحيطان به خبراً سوى التقاط البعر من الطرقات والشوارع ، فاتخذا ذلك مهنة لهما ، وفى يوم من الأيام وهما على عملهما أرادت السعادة أن تحنو عليهما فلمح الحسن العجوز فعرفها ، وقد حل وفاء الدين ، والمعروف فى ذمة الأحرار دين ، فأمر غلامه أن يأتى بها إليه ، فلما مثلت بين يديه قال الإمام الحسن لها : أتعرفينى يا أمة الله ؟

– لا

– أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا .

– لست أعرفك .

– إن لم تعرفيني فأنا أعرفك .

ثم أمر غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار ، ثم أمر غلامه أن يذهب بها إلى أخيه الحسين رضى الله عنه ويعرفه بها ، فأخذها الغلام فلما دخلت عرفها سيد الشهداء فقال للغلام :

– كم أعطاها أخى ؟

فأخبره الغلام بعطائه فوصلها عليه السلام بمثل ذلك ، ثم بعث بها إلى عبد الله بن جعفر فلما دخلت عليه عرفها ، فأمر لها بألفى شاة وألفى دينار ، فأخذت ذلك جميعاً وانصرفت وقد تغير حالها من فقر مدقع إلى غناء وثروة حسدها عليه كل من عرفها ، كل ذلك من بر الحسن وفضله .

٦ – واشترى عليه السلام بستاناً من الأنصار بأربعمائة ألف ، ثم بلغه بعد ذلك أنهم قد احتاجوا إلى ما فى أيدى الناس فرده إليهم ، وبذلك أنقذهم من ذل السؤال وهذا أفضل أنواع السخاء .

٧ – وحيته جارية بطاقة من ريحان فقال عليه السلام لها : (أنت حرة لوجه الله) فلامه أنس على ذلك : فأجابه أدبنا الله تعالى فقال : (إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) وكان أحسن منها إعتاقها .

٨ – وهناك قصة تروى عن مكارمه وتتلخص فى أن مروان بن الحكم قال : « إنى لمشغوف ببغلة الحسن بن على فمن يأتينى بها ؟ » .

فانبرى له ابن أبى عتيق قائلا :

– أنا آتيك بها لكن بشرط أن تقضى لى ثلاثين حاجة ؟

– ألتزم لك بذلك .

فقال ابن أبى عتيق لمروان : إذا اجتمع الناس عندك العشية فإنى آخذ فى مآثر قريش وأمسك عن الحسن فلمنى على ذلك .

فلما اجتمع الناس أخذ ابن أبى عتيق فى مآثر قريش وسكت عن ذكر فضائل الإمام الحسن .

فقال له مروان : ألا تذكر أولية أبى محمد وله فى هذا ما ليس لأحد منا .

فقال ابن أبى عتيق : إنما كنا فى ذكر الأشراف ولو كنا فى ذكر الأنبياء لذكرنا فضائل أبى محمد .

ولما خرج الإمام الحسن رضى الله عنه تبعه ابن أبى عتيق ، فلما نظر إليه الحسن عليه السلام تبسم وعرف الغاية من مديحه فقال رضى الله عنه له : ألك حاجة ؟ فقال نعم ذكرت البغلة ، فنزل عليه السلام ودفعها إليه .

٩ – وقصة أخرى تروى وملخصها أن فقيراً جاءه يشكو حاله ولم يكن عنده عليه السلام فى ذلك اليوم شىء فعز عليه الأمر واستحى من رده فقال رضى الله عنه له : إنى أدلك على شىء يحصل لك منه الخير ، فقال الفقير يابن رسول الله ما هو ؟

قال رضى الله عنه : اذهب إلى الخليفة فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير .

قال : يابن رسول الله حفظني أياها .

قال عليه السلام : قل له « الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها و لم يهتكها بجلوسها على قبرك » .

وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزاه بها ، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة .

وقال له : أكلامك هذا ؟

– لا ، وإنما كلام الإمام الحسن .

فقال الخليفة : صدقت فإن معدن الكلام الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرى .

زهده

رفض الإمام جميع مباهج الحياة وزهد فى ملاذها ونعيمها ، واتجه إلى الدار الآخرة التى أعدها الله للمتقين من عباده وقال عليه السلام : « من عرف الله أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل إذا تفكر حزن ، وقد ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله » .

وقد تحدث رضى الله عنه عن عزوفه عن الدنيا واقتناعه بالقليل منها بقوله :

لكسرة من خسيس الخبز تشبعنى ... وشربة من قراح الماء تكفينى

وطمرة من دقيق الثوب تسترنى ... حيًا وإن مت تكفينى لتكفينى

ويقول أيضاً :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى إن المنيـــة نازلة بك يا فتى
أصبحت ذا فرح كأنك لا ترى أحباب قلبك فى المقابر والبـــلى

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

يا أهل لذات الدنيا لا بقاء لها إن اغـــتراراً بظـل زائل حمق

ويقول فى ذم المغرور فى الدنيا والمفتون بحبها :

قل للمقـــــيم بغير دار إقامة حان الرحيـــل فودع الأحبابا
إن الذين لقيتهـــم وصحبتهم صـــاروا جميعاً فى القبور ترابا

تقواه وورعه

كان الإمام الحسن إذا دخل المسجد رفع صوته قائلا :

(إلهى ضيفك ببابك يا محسن قد أتاك المسىء فتجاوز عن قبيح ما عندى بجميل ما عندك ياكريم).

وإذا شرع فى الصلاة بدا عليه الخوف والخضوع والخشوع حتى ترتعد جميع فرائصه ، ومن مظاهر عبادته وخوفه من الله أنه إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ، فسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، وإذا ذكر الموت وما يعقبه من بعث ونشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين . وإذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها ، وإذا حضر جنازة ظهرت عليه السكينة أياماً ، وإذا مات فى جواره ميت سمع منه النحيب والبكاء كما

يسمع من دار الميت .

وأما تلاوته للذكر الحكيم فكان يتلو آياته المحكمة بإمعان وتدبر فكان لا يمر بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلا قال : لبيك اللهم لبيك .

ومن مظاهر عبادته أنه كان يقرأ كل ليلة سورة الكهف وإذا فرغ من صلاة الفجر لا يتكلم إلا بذكر الله حتى تطلع الشمس .

وروى ابن قتيبة أن رجلا أتى الحسن بن على يسأله فقال الحسن إن المسألة لا تصلح إلا فى غُرم فادح أو فقر مدقع أو حَمَالة مُفظِّعة . فقال الرجل ما جئت إلا فى إحداهن – فأمر له بمائة دينار ثم أتى الرجل الحسين ابن على فسأله فقال له مثل ما قاله أخوه فرد عليه كما رد على الحسن فقال كم أعطاك – قال مائة دينار فنقصه ديناراً كره أن يساوى أخاه ، ثم أتى الرجل عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء فقال له الرجل إنى أتيت الحسن والحسين واقتصّ كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال عبد الله ويحك : وإنى تجعلنى مثلهما إنهما غُرّا العلم غُرَّا المال .

ومما يدل على عظيم زهده أنه زهد فى الملك خوفاً من دماء المسلمين وطلباً لمرضاة الله ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين » . كما سيأتى ذلك تفصيلا بعد قليل ، وقد قال : والله ما أحببت منذ علمت ما ينفعنى ويضرنى أن ألى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أن يهراق فى ذلك محجمة دم ، وذلك هو الزهد بعينه . قد بينت ذلك سابقاً .

هيبته ووقاره

الإمام الحسن سيد فى حداثته وعظيم منذ صغره يلحق به أبو هريرة ويقول له : السلام عليك يا سيدى لأنه سيده رغم التفاوت بينهما فى السن بدليل أنه يقسم دون أن يخاف معرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الحسن سيد . .

إن شخصية الحسن كانت تملأ العيون وتهيمن على النفوس لأنه قد التفت به عناصر الإمامة وتمثلت فيه هيبة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد كان معاوية وهو سلطانه يهابه ويخشاه . ولقد صار للحسن هيبة واحترام يضطران ابن عباس على جلاله وصحبته أن يأخذ له الركاب إذا ركب ويرى ذلك فرصة سعيدة يتبرك بها هو وأرفع الصحابة كعباً وأدناهم من جده منزلة لأنه يتمتع منذ طفولته الرشيدة بفطنة حادة وحمية مهذبة متزنة تميزه أشياء لا تتوافر فى غير ربيب النبى بل تفرض على محمد بن إسحاق أن يقول (ما تكلم عندى أحد كان أحب إلىّ إذا تكلم ألا يسكت من الحسن بن على وما سمعت منه كلمة فحش قط . .)

وقد بلغ من عظيم هيبته أنه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق ، لأنه لا يمر أحد إلا جلس إجلالا وإكباراً له فإذا علم ذلك قام ودخل البيت .

ومن عظيم هيبته وسمو مكانته فى نفوس المسلمين أنه ما اجتاز مع أخيه

على ركب فى حال سفرهما إلى بيت الله الحرام ماشيين إلا ترجل ذلك الركب تعظيماً وإكباراً لهما ، حتى ثقل المشى على جماهير الحجاج فكلموا سعد بن أبى وقاص فى ذلك فبادر إلى الإمام وقال له : « يا أبا محمد ، إن المشى قد ثقل على الحجاج لأنهم إذا رأوكما لم تطب نفوسهم بالركوب فلو ركبتما رحمة لهم » .

فأجابه الإمام بما ينم عن نفس قد عاهدَتِ الله أن تبذل فى مرضاته كل غال ونفيس قائلا :

« لا نركب فقد عاهدنا الله أن نؤم بيته ماشين ، ولكن ننتكب الطريق » كما جاء ذلك فى المناقب .

وسار عليه السلام فى بعض طرق يثرب ، وقد لبس حلة فاخرة وركب بغلة فارهة ووجهه الشريف يشرق حسناً وجمالا ، وقد حفت به خدمه وحاشيته فرآه بعض اليهود فبادر إليه أحدهم وقال له :

– يابن رسول الله عندى سؤال ؟

– ما هو ؟

– إن جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فأنت المؤمن وأنا الكافر وما الدنيا إلا جنة لك تنعم فيها وتستلذ بها وأنت مؤمن ، وما أراها إلا سجناً قد أهلكنى حرها وأجهدنى فقرها ؟

– لو نظرت إلى ما أعد الله لى وللمؤمنين فى الدار الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لعلمت أنى قبل انتقالى إليها وأنا فى هذه

الحالة فى سجن ، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر فى دار الآخرة من سعير نار جهنم ، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنك فى جنة واسعة ونعمة جامعة[١] . وتركه الإمام واليهودى يتميز من الغيظ والحقد .

ورأى هيبة الإمام ووقاره بعض الأغبياء من الحاقدين عليه ، فقال له : « إن فيك عظمة » .

فأجابه الإمام : إن فىَّ عزة ، ثم تلا قوله تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) . كما جاء فى المناقب .

إن الحسن كان يحكى جـــده الرسول صلى الله عليه وسلم فى هيبته وسؤدده .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإنه له جرأتى وجودى » .

وكل هذا يفسر لنا ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما حين مات الإمام الحسن : « أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام » وأنت تدرك من كلمة ابن عباس هذه أى مكانة كانت للإمام الحسن فى المجتمع وأى فراغ كان يملؤه فى الناس .

---

(١) الفصول المهمة .

علمه وفصاحته وبلاغته :

أسلفت القول بأن الإمام الحسن رضى الله عنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث حفظها عنه ويؤيد ذلك ما جاء فى كتاب الإصابة لابن حجر ، وقد وعى حديث الرسول مع أنه كان دون الثامنة والحقيقة أن للبيئة التى نشأ فيها دخلا عظيماً فى تعليمه ، فبعد جده تولى الإمام على كرم الله وجهه تربيته وثقافته العلمية .

وقد نشأ على بن أبى طالب فى الإسلام منذ طفولته وتربى فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، وغرف علمه من بحر النبوة الأصفى حتى امتلأ وصار كما قال الإمام الحسن البصرى ربانى هذه الأمة .

وكان يتحدث بنعمة ربه فيقول : « أيها الناس سلونى قبل أن تفقدونى فوالله ما من آية فى كتاب الله عز وجل إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل » لذلك كان علم الإمام الحسن موروثاً بحق ومغروفاً من المنبع الأصفى فكان علماً خالصاً ، حرص عليه ونفع به ، وقدره قدره حتى روى عنه أنه كان يقول لبنيه وبنى أخيه الإمام الحسين : « تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم » . وفى تفسير كتاب الله تعالى سئل ذات يوم عن تفسير قوله تعالى فى سورة (البروج) (وشاهد ومشهود) فأجاب بقوله أما الشاهد فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

منيراً) . وأما (المشهود) فهو يوم القيامة وذلك فى قوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) — وما إن سمع منه السائل هذا التفسير المؤيد بكتاب الله حتى احتضنه واثنى عليه قائلا : أشهد أنك من بيت النبوة .

أما بلاغته : فقد كان من أروع البلغاء فى إصابته للمناسبات ، ومن أقدرهم على الإيجاز والإعجاز والإبداع فى الكلام ، فقد سئل عن مكارم الأخلاق . فقال : مكارم الأخلاق عشرة : صدق اللسان ، والتذمم [١] على الجار ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، وحسن الخلق ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، ومعرفة الحق للصاحب ، وقرى الضيف ورأسهن الحياء .

وقال فى فضل القرآن :

إن هذا القرآن فيه مصابيح النور ، وشفاء الصدور فليجل جال بضوئه وليلجم الصفة قلبه فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور .

وقال فى الدعاء :

— ما فتح الله عز وجل على أحد باب مسألة فخزن[٢] عنه باب الإجابة ، ولا فتح على رجل باب عمل فخزن عنه باب القبول ، ولا فتح لعبد باب شكر فخزن عنه باب المزيد .

---

(١) التذمم : مأخوذ من أذمه أى أجاره وأخذه تحت حمايته .

(٢) خزن : أغلق وسد .

وقال فى السياسة :

– هى أن نرعى حقوق الله وحقوق الأحياء وحقوق الأموات ، فأما حقوق الله ، فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى ، وأما حقوق الأحياء فهى أن تقوم بواجبك نحو إخوانك ولا تتأخر عن خدمة أمتك ، وأن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته ، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوى ، وأما حقوق الأموات فهى أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم ربًا يحاسبهم .

وقال له معاوية : ما يجب لنا فى سلطاننا ؟

الإمام : ما قال سليمان بن داود .

معاوية : وما قال سليمان ؟

الإمام : إنه قال لبعض أصحابه : أتدرى ما يجب على الملك فى ملكه وما لا يضره إذا أدى الذى عليه منه ، إذا خاف الله فى السر والعلانية وعدل فى الغضب والرضا وقصد فى الفقر والغنى ، ولم يأخذ الأموال غضباً ، ولم يأكلها إسرافاً وتبذيراً ، ولم يضره ما تمتع به من دنياه إذا كان من خلته .

وقال فى الصديق والصاحب :

– ألا أخبركم عن صديق كان لى من أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظم به فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهى ما لا يحل ، ولا يكنز إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يمد يداً إلا على ثقة لمنفعة ، كان لا يتشكى ولا يتبرم ، كان أكثر دهره

صامتاً فإذا قال بذ (أى تفوق وغلب) القائلين ، كان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً ، كان – إذا جامع العلماء – على أن يسمع أحرص منه على أن يقول ، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، كان لا يقول ما يفعل ويفعل ما لا يقول ، كان إذا عرض له أمران لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه ، كان لا يلوم أحداً على ما قد يقع العذر فى مثله ، كان لا يقول حتى يرى قاضياً عدلا وشهوداً عدولا .

المروءة والكرم والنجدة والحزم

التفت معاوية يوماً إلى الإمام الحسن ، وقال له : يا أبا محمد أربع خلال لم أجد من يجيبنى عنها :

– ما هى ؟

– المروءة والكرم والنجدة والحزم .

– أما المروءة فإصلاح الرجل أمر دينه وحسن قيامه على ماله وإفشاء السلام والتحبب إلى الناس . وقال أيضاً : المروءة شح الرجل على دينه وإصلاحه ماله وقيامه بالحقوق .

– الكرم : العطية قبل السؤال ، والتبرع بالمعروف والإطعام فى المحل .

– النجدة : الذب عن الجار والصبر عند الشدائد .

– الحزم : طول الأناة والاحتراس من جميع الناس .

الكنز والحرص والحسد :

قال الإمام الحسن عليه السلام :
هلاك الناس فى ثلاث : الكبر والحرص والحسد .
– والكبر به هلاك الدين وبه لعن إبليس .
– والحرص عدو النفس وبه أخرج آدم من الجنة .
– والحسد رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل[١] .

التحريض على طلب العلم :

قال الإمام الحسن لبنيه : تعلموا العلم فإنكم صغار القوم اليوم وكبارهم غداً ، ومن لم يحفظ منكم فليكتب .

وقال : علم الناس وتعلم علم غيرك ، فتكون قد أتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم .

وقال : حسن السؤال نصف العلم[٢] .

فضل القرآن الكريم :

يقول الإمام الحسن : إن القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور فليجل جال بضوئه وليلجم الصفة قلبه ، فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور[٣] .

(١ ، ٢) نور الأبصار .
(٣) كشف الغمة .

obeikandl.com

السخاء والمعروف :

وكان عليه السلام يطوف فى بيت الله الحرام ، فسأله رجل عن معنى الجواد ؟

فقال له : إن لكلامك وجهين ، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإن الجواد الذى يؤدى ما افترض عليه ، والبخيل الذى يبخل بما افترض عليه ، وإن كنت تسأل عن الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له ، وإن منع منع ما ليس له .

وقال عليه السلام : المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منّ ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد .

فى القضاء والقدر :

وكتب الحسن البصرى إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما ، يسأله عن القضاء والقدر ، فكتب الإمام الحسن بن علىّ يقول :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حمل ذنبه ربه فقد فجر وإن الله تعالى لا يطاع استكراهاً ولا يعصى بغلبة ، لأنه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فإن لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، ولو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم فإن ذلك عجز

فى القدرة ، ولكن الله له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم » .

تقوى الله :

قال عليه السلام : « إن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتاركككم سدى ، كتب آجالكم وقسم بينكم معائشكم ليعرف كل ذى منزلة منزلته وأن ما قدر له أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤنة الدنيا وفرغكم لعبادته وحثكم على الشكر وافترض عليكم وأوصاكم بالتقوى ، وجعل التقوى منتهى رضاه والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة ، وشرف كل عمل بالتقوى ، فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى : (إن للمتقين مفازاً) . وقال : (ويُنجّى اللهُ الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسُّهم السوءُ ولا هم يحزنون) . فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ، ويسدده فى أمره ويهيئ له رشده ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وقال عليه السلام :

يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً ، وارض بما قسم الله تكن غنيًّا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا ، إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً ، أصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً ،

يا ابن آدم إنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فجد بما فى يديك فإن المؤمن يتزود والكافر يتمتع ، وكان يتلو عقب كلامه هذا قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) .

ومر عليه السلام على قوم يلعبون ويضحكون فى يوم عيد الفطر فوقف عليه السلام والتفت إليهم قائلا :

إن الله جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا ، وقصر آخرون فخابوا ، فالعجب كل العجب من ضاحك لاعب فى اليوم الذى يثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون ، وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا أن المحسن مشغول بإحسانه والمسىء مشغول بإساءته ثم تركهم عليه السلام وانصرف .

وفى المساجد يقول عليه السلام من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثمان خصال :

آية محكمة ، وأخاً مستفاداً ، وعلماً مستطرفاً ، ورحمة منتظرة ، وكلمة تدل على هدى أو تردعه عن ردى ، وترك الذنوب حياء أو خشية .

الآداب الاجتماعية :

وجه الإمام علي إلى الحسن أسئلة هى البرنامج الصحيح للأخلاق والفضائل فأجاب الحسن بما هو عفو الخاطر فكان الجواب آية من آيات البلاغة والإعجاز : .

الإمام على : يا بنى ما السداد — الحسن : يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف .
» » : ما الشرف ؟ — » : اصطناع العشيرة وحمل الجريرة .
» » : ما المروءة ؟ — » : العفاف وإصلاح المرء ماله .
» » : ما الدنيئة ؟ — » : النظر فى اليسير ومنع الحقير
» » : ما اللؤم ؟ — » : احتراز المرء نفسه وبذله عرشه .
» » : ما السماحة ؟ — » : البذل فى العسر واليسر .
» » : ما الشح ؟ — » : أن ترى ما فى يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً .
» » : ما الإخاء ؟ — » : الوفاء فى الشدة والرخاء .
» » : ما الجبن ؟ — » : الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .
» » : ما الغنيمة ؟ — » : الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا
» » : ما الحلم ؟ — » : كظم الغيظ وملك النفس .
» » : ما الغنى ؟ — » : رضى النفس بما قسم الله وإن قل فإنما الغنى غنى النفس
» » : ما الفقر ؟ — » : شره النفس فى كل شىء .
» » : ما المنعة ؟ — » : شدة البأس ومقارعة أشد الناس .
» » : ما الذل ؟ — » : الفزع عند المصدوقية
» » : ما الجرأة ؟ — » : موافقة الأقران .

الإمام على : ما الكلفة ؟ — الحسن : كلامك فيما لا يعنيك .

» » : ما المجد ؟ — » : أن تعطى فى الغرم وأن تعفو عن الجرم .

» » : ما العقل ؟ — » : حفظ القلب كل ما استرعيته .

» » : ما الحزق ؟ — » : معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك .

» » : ما الثناء ؟ — » : إتيان الجميل وترك القبيح .

» » : ما الحزم ؟ — » : طول الأناة والرفق بالـــولاة والاحتراس من الناس بسوء الظن هو الحزم .

» » : ما الشرف ؟ — » : موافقه الإخوان .

» » : ما السفه ؟ — » : اتباع الدناة ومصاحبة الغواة

» » : ما الغفلة ؟ — » : تركك المسجد وطاعتك المفسد .

» » : ما الحرمان ؟ — » : تركك حظك وقد عرض عليك .

» » : ما السيد ؟ — » : الأحمق فى ماله المتهاون فى عرضه ، يشتم فلا يجيب ، المتحزن بأمر العشيرة هو السيد .

» » : ما الزهد ؟ — » : الرغبة فى التقوى والزهادة فى الدنيا .

الإمام على : ما العى ؟ — الحسن : العبث باللحية وكثرة التنحنح عند المنطق .

« « : ما الرأفة ؟ — « : النظر فى اليسير ومنع الحقير .

ومن حكمه عليه السلام :

أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليلا هدى للتى هى أقوم ووفقه الله للرشاد وسدده للحسنى ، فإن جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مخذول فاحترسوا من الله بكثرة الذكر . واخشوا الله بالتقوى ، وتقربوا إلى الله بالطاعة فإنه قريب مجيب .

قال الله تبارك وتعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) فاستجيبوا لله وآمنوا به فإنه لا ينبغى لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم ، فإن رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا ، و[عز] الذين يعرفون ما جلال الله أن يتذلّلوا [له] ، وسلامة الذين يعلمون ما قدره الله أن يستلموا له ، ولا ينكروا أنفسهم بعد المعرفة ولا يضلوا بعد الهدى . واعلموا علماً يقيناً أنكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى ، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذى نبذه ، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذى حرَّفه ، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم الفرية على الله والتحريف ، ورأيتم كيف يهوى من

يهوى ولا يجهلنّكم الذين لا يعلمون . والتمسوا ذلك عند أهله فإنهم خاصة نور يُستضاء بهم وأئمة يقتدى بهم ، بهم عيش العلم وموت الجهل – وهم الذين أخبركم حلمهم عن جهلهم وحكم منطقهم عن صمتهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وقد خلت لهم من الله سنّة ومضى فيهم من الله حكم إن فى ذلك لذكرى للذاكرين ، واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته ولا تعقلوه عقل روايته ، فإن رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستعان .

جوابه فى مسائل سئل عنها

بعث معاوية رجلا متنكراً يسأل الإمام عليًّا رضى الله عنه عن مسائل سأله عنها ملك الروم ، فلما دخل الكوفة وخاطب أمير المؤمنين أنكره فقرره فاعترف له بالحال ، فقال الإمام على قاتل الله ابن آكلة الأكباد ما أضله وأضلّ من معه ، قاتله الله لقد أعتق جارية ما أحسن أن يتزوجها – حكم الله بينى وبين هذه الأمة قطعوا رحمى وصغّروا عظيم منزلتى وأضاعوا أيامى – علىّ بالحسن والحسين ومحمد فدُعوا فقال عليه السلام يا أخا أهل الشام هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ابنى فاسأل أيهم أحببت .

فقال الشامى : أسأل هذا – يعنى الحسن عليه السلام ثم قال :

كم بين الحق والباطل – وكم بين السماء والأرض – وكم بين المشرق والمغرب ؟ وعن هذا المحو الذى فى القمر ، وعن قوس قزح – وعن هذه المجرّة وعن

أول شيء انتضح على وجه الأرض – وعن أول شيء اهتز عليها – وعن العين التى تأوى إليها أرواح المؤمنين والمشركين – وعن المؤنث – وعن عشرة أشياء بعضها أشد من بعض ؟

فقال الحسن عليه السلام : يا أخا الشام بين الحق والباطل أصابع ما رأيت بعينك فهو الحق – وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً – وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومدُّ البصر – فمن قال غير هذا فكذِّبه .

وبين المشرق والمغرب يوم مطرد للشمس تنظر إلى الشمس حين تطلع وتنظر إليها حين تغرب من قال غير هذا فكذِّبه . وأما هذه المجرَّة فهى إشراج السماء مهبط الماء المنهمر على نوح عليه السلام . وأما قوس قزح فلا تقل : قزح فإن قزح شيطان ولكنها قوس الله وأمان من الغرق . وأما المحو الذى فى القمر فإن ضوء القمر كان مثل ضوء الشمس فمحاه الله . وقال فى كتابه : فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) .

وأما أول شيء انتضح على وجه الأرض فهو وادى دلس . وأما أول شيء اهتز على وجه الأرض فهى النخلة . وأما العين التى تأوى إليها أرواح المؤمنين فهى عين يقال لها سلمى . وأما العين التى تأوى إليها أرواح الكافرين فهى عين يقال لها برهوت[1] – وأما المؤنث فإنسانُ لايدرى امرأة هو أم رجل فينتظر به الحلم فإن كانت امرأة بانت ثدياها ، وإن كان رجلا خرجت

---

(١) برهوت : واد باليمن أو بئر بحضرموت – وقيل هو اسم البلدى الذى فيه البئر رائحتها منتنة فظيعة جداً .

لحيته . وإلا قيل له يبول على الحائط فإن أصاب الحائط بوله فهو رجلٌ وإن نكص كما ينكص بول البعير فهى امرأة .

وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض فأشد شيء خلق الله الحجر وأشد من الحجر الحديد ، وأشد من الحديد النار ، وأشد من النار الماء ، وأشد من الماء السحاب ، وأشد من السحاب الريح ، وأشد من الريح الملك ، وأشد من الملك ملك الموت ، وأشد من ملك الموت الموت ، وأشد من الموت أمر الله .

قال الشامى : أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كلامه فى الاستطاعة :

كتب الحسن بن أبى الحسن البصرى إلى أبى محمد الحسن بن على عليهما السلام :

« أما بعد فإنكم معشر بنى هاشم الفلك الجارية فى اللجج الغامرة والأعلام النيِّرة الشاهرة ، أو كسفينة نوح عليه السلام التى نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون ، كتبت إليك يابن رسول الله عند اختلافنا فى القدر وحيرتنا فى الاستطاعة فأخبرنا بالذى عليه رأيك ورأى آبائك عليهم السلام . فإن من علم الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله الشاهد عليكم ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

فأجابه الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم – وصل إلىّ كتابك ولولا ما

ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذاً ما أخبرتك . أما بعد فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أن الله يعلمه فقد كفر ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر .

إن الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة بل هو المالك لما ملّكهم والقادر على ما عليه أقدرهم ، بل أمرهم تخييراً ونهاهم تحذيراً ، فإن ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً ، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل ، وإن لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً ، بل منّ عليهم بأن بصّرهم وعرّفهم وحذّرهم وأمرهم ونهاهم ، لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة ، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه ، ولله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين والسلام على من اتبع الهدى .

وحينما قال له معاوية بعد الصلح : (اذكر فضلنا) حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي وآله ثم قال : (من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن رسول الله ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن المصطفى بالرسالة ، أنا ابن من صلت عليه الملائكة ، أنا ابن من شرفت به الأمة ، أنا ابن من كان جبريل السفير من الله إليه ، أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين).

وهنا قال له معاوية : (يا حسن عليك بالرُّطب فانعته لنا) .

قال : نعم يا معاوية الريح تلقحه ، والشمس تُنفخه – والقمر يلوِّنه ، والحر ينضجه ، والليل يبرده .

ثم أقبل على منطقه فقال : أنا ابن المستجاب الدعوة ، أنا ابن من كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن الشفيع المطاع ، أنا ابن مكة ومنى أنا ابن من خضعت له قريش رغماً ، أنا ابن من سعد تابعه وشقى خاذله ، أنا ابن من جعلت الأرض له طهوراً ومسجداً ، أنا ابن من كانت أخبار السماء له تترى أنا ابن من أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

فقال معاوية : أظن نفسك يا حسن تنازعك إلى الخلافة ؟

فقال : ويلك يامعاوية إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعة الله ، ولعمرى إنا لأعلام الهدى ، ومنار التقى ولكنك يامعاوية ممن أبار السنن ، وأحيا البدع واتخذ عباد الله خولاً ودين الله لعباً ، فكان قد أخمل ما أنت فيه فعشت يسيراً وبقيت عليك تبعاته .

وروى عنه عليه السلام فى قصار هذه المعانى :

قال : ما تشاور قومٌ إلا هُدوا إلى رشدهم .

وقال : اللؤم ألا تشكر النعمة .

وقال لبعض ولده : يا بُنى لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره ، فإذا استطبت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة والمواساة فى العسرة .

وقال : لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم ، فإن ابتغاء الفضل من السنة والإجمال فى الطلب من العفة وليست العفة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلا ، فإن الرزق مقسومٌ واستعمال الحرص استعمال المآثم .

وقال عليه السلام : القريب من قرَّبته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه . لا شيء أقرب من يد إلى جسد – وإن اليد تغل فتقطع وتحسم .

وقال عليه السلام : الخير الذى لا شر فيه : الشكر مع النعمة والصبر على النازلة .

وقال لرجل أبلَّ من علة : إن الله قد ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره .

وقال : العار أهون من النار .

وقال عند صلحة لمعاوية : إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام بالسلامة والصبر فسلبت السلامة بالعداوة – والصبر بالجذع ، وكنتم فى مبدئكم إلى حنين ودينكم أمام دنياكم وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم .

وقال : ما أعرف أحداً إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه .

وقيل له : فيك عظمة فقال : بل فىّ عزة – قال الله

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

ويقول عليه السلام : من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان : آية محكمة وأخاً مستفاداً وعلماً مستفرطاً ورحمة منتظرة وكلمة تدله على الهدى أو تردَّه عن ردىً وترك الذنوب حياءً أو خشية .

ورزق غلاماً فأتته قريش تهنئه فقالوا : يهنيك الفارس – فقال عليه السلام هذا القول ؟ ولعله يكون راجلا فقال له جابر : كيف نقول يا ابن رسول الله ؟ فقال عليه السلام : إذا ولد لأحدكم غلامٌ فأتيتموه فقولوا له :

شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب ، بلغ الله به أشدَّه ورزقك برّه .

وقال عليه السلام : إن أبصر الأبصار ما نفذ فى الخير مذهبه وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به . أسلم القلوب ما طهر من الشبهات .

وسأله رجل أن يخيله – قال عليه السلام : إياك أن تمدحنى فأنا أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب ، أو تغتاب عندى أحداً فقال له الرجل : أتأذن لى فى الانصراف فقال : نعم إذا شئت .

وقال عليه السلام : إن من طلب العبادة تزكى لها . إذا أضرّت النوافل بالفريضة فارفضوها . اليقين معاذ للسلامة . من تذكر بُعد السفر اعتدَّ . ولا يغش العاقل من استنصحه بينكم وبين الموعظة حجاب العزّة . قطع العلم عذر المتعلمين . كلّ معاجل يسأل النظرة وكل مؤجل يتعلل بالتسويف .

وقال : اتقوا الله – عباد الله – وجدوا فى الطلب – وتجاه الهرب ، وبادروا العمل قبل متقطعات النقمات ، وهادم اللذات ، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعها ولا تتوقى فى مساويها – غرور حائل وسناد مائل فاتعظوا عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالأثر ، وازدجروا بالنعيم وانتفعوا بالمواعظ ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً ، وكفى بالجنة ثواباً وكفى بالنار عقاباً ووبالاً .

بيعة الإمام الحسن

بينت فى الكتاب الثانى من أهل البيت (على بن أبى طالب) ما قدر

الله سبحانه وتعالى من اغتيال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه غدراً بيد أحد الخوارج وهو (عبد الرحمن بن ملجم) فمات الإمام شهيداً راضياً مرضيًّا .

وقد ضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم وهو خارج لصلاة الفجر ، ولم ينس الإمام على رضى الله عنه وهو فى هذه المحنة القاسية أن يوصى أهله بألا يمثلوا بقاتله ، وقال لهم : (يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى ، انظروا حسن إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولاتمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » . وكان مما قاله أمير المؤمنين مخاطباً ابنه الإمام الحسن فى شأن ابن ملجم : (يا بنى نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقتص منه بأن تقتله ولا تمثل بالرجل ، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل بيت لا تزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً) .

وفى الساعة الأخيرة أوصى الإمام بنيه الحسن والحسين بوصية ، ثم نظر إلى أخيهما لأبيهما محمد بن الحنفية رضى الله عنه وقال له :

(هل حفظت ما أوصيت به أخويك ، قال نعم : قال فإنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك ، العظيم حقهما عليك ، وتزين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما) .

ثم قال لهما : وصيتكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن

أباكما كان يحبه فأحباه .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نبأه بما وقع له .

فقد قال له يوماً : أتعلم من أشقى الأولين ؟

قال : نعم عاقر الناقة ، فقال ألا تعلم من أشقى الآخرين ؟ قال الذى يضربك على هذه فيخضب هذه .

وفى رواية أنه لما أقبلت الليلة الثامنة عشرة من شهر رمضان اضطرب الإمام أشد الاضطراب فجعل يمشى فى صحن الدار وهو محزون النفس خائر القوى ، ينظر إلى الكواكب ويتأمل فيها فيزداد همه وحزنه وهو يقول متنبأ عن وقوع الحادث وقال : (ما كذبت ولا كذبت ، إنها الليلة التى وعدت بها) كما جاء فى الصواعق .

أما مبايعة الإمام الحسن فهناك خلاف بين الشيعة والسنة فى أمرها . فيكاد يجمع الشيعة على إمامة هؤلاء الثلاثة على والحسن والحسين .

أما أهل السنة فلا ينكرون إمامة الحسن أيام خلافته حتى سلم الأمر لمعاوية — ويرى الشيعة عكس ذلك فإمامته متصلة منذ مقتل الإمام على إلى أن فارق الدنيا .

وفى هذا يذكر الشيعة أن علياً دفع إليه سلاحه وسائر تراث الأنبياء والأوصياء وسلمه الاسم الأعظم[1] وأن علياً جمع أولاده بعد طعنه وكانوا اثنى عشر ذكراً فقال لهم : (يا بنىّ إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل فىّ سنة

---

(١) المسعودى = إثبات الوصية — ونظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية .

يعقوب إذ دعا ولده وكانوا اثنى عشر ذكراً فأخبرهم بصاحبهم ، ألا وإنى أخبركم بصاحبكم ، ألا إن هذين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشار إلى الحسن والحسين فاسمعوا لهما وأطيعوا وذودوا عنهما فإنى ائتمنتهما على ما ائتمننى رسول الله مما ائتمنه الله عليه من خلقه .

أما أهل السنة فيذكرون عن على أنه قال عكس ذلك إذ سئل ألا تستخلف علينا ؟ قال : — ما استخلف رسول الله فأستخلف ، ولكن إن يرد الله للناس خيراً فسيجمعهم بعدى على خيرهم ، وأنه سئل هل يستخلف الحسن ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

وفى معرض الخلاف بين الشيعة والسنة يذكر الدكتور أحمد صبحى[١] أن علياً قد غادر الدنيا وهو ينصح شيعته ويلح عليهم بمواصلة الحرب ضد معاوية ، لأنه طلب الباطل فأصابه . وكان على يعلم أن ابنه الحسن لم يكن يوافقه تماماً على حروبه ، ولم يكن متحمساً لها ، وربما لم يغب عن بال على أيضاً أن لو آل الأمر إلى الحسن لسلم الخلافة لمعاوية . وقد وصف على ابنه بقوله : (أما الحسن فصاحب جفنة وخوان قتى من فتيان قريش ، ولو قد التقت حلقنا البطان لم يغن عنكم شيئاً فى الحرب . ثم يقول وأما أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منا)[٢] .

ونصل فى النهاية إلى أن إمامة الحسن من وجهة النظر الشيعية واجبة

---

(١) نظرية الإمامة للدكتور أحمد صبحى .

(٢) ابن أبى الحديد (شرح النهج) .

لا محيص عنها من حيث إنه السبط الأكبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأول الأئمة من ذرية الرسول ، فهو إذاً همزة الوصل بين الرسول وبين أى إمام منتسب إلى آل البيت .

ويؤيد المرحوم الدكتور طه حسين الاختلاف الذى حدث بين المسلمين فالمؤرخون والمحدثون من أهل السنة يقولون إن عليًّا أبى أن يستخلف حين طلب ذلك بعد أن أصيب . يقول قدم : إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الحسن فقال : لا آمركم ولا أنهاكم . ويقول قوم آخرون إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف فأبى وقال : أترككم كما تركككم رسول الله .

والإمام الحسن بدون شك هو الخليفة الطبيعى لوالده أمير المؤمنين فهو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة وهو إمام إن قام أو قعد وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا » ، وقد هذبه الله عن كل نقص ورجس ، كما دلت على ذلك آية التطهير ، بالإضافة إلى توافر جميع ما تتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة فى شخصيته كالعلم والتقوى والحزم والجدارة .

فزع المسلمون بعد موت الإمام وأجمعوا أمرهم على مبايعة الإمام الحسن فاجتمعوا فى جامع الكوفة سنة أربعين من الهجرة فى صباح ٢١ من شهر رمضان المبارك وقدمه للخلافة وبايعه قيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن العباس أما الأول فهو أعظم قواد على الذين بقوا على قيد الحياة بعد وفاة

عمار ، والاشـــتر وهو زعيم الأنصار فكانت بيعته بيعة الأنصار وأما الثانى فقد كانت بيعته بيعة بنى هاشم وآل الرسول صلى الله عليه وسلم وأقبل الإمام الحسن ، فاعتلى[١] منصة الخطابة فابتدأ ، بعد حمد الله والثناء عليه بتأبين فقيد العدالة الكبرى الإمام أمير المؤمنين ، وتعداد بعض فضائله ومواهبه فقال :

« لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهـــه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، ولقد توفى فى هذه الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ، ولقد توفى فيها يوشع بن نون — وصى موسى — وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » .

وتمثلت صورة الإمام أمامه فخنقته العبرة وأرسل ما فى عينيه من دموع ، وكذلك بكى جميع من حضر فى جنبات الحفل ، وساد الحزن وعم الأسى .

ثم استأنف الإمام خطابه ، فأعرب للناس عن سمو مكانته وما يتمتع به من الشرف والمجد قائلا :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ، وأنا ابن النبى ، وأنا ابن البشير النذير ، وأنا ابن الداعى إلى الله بإذنه ، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم

---

(١) وقد روى ذلك أبو الفرج بسنده فى مقاتل الطالبيين ومؤيده ما جاء فى الطبرى وابن الأثير وابن أبى حديد .

تطهيراً ، وأنا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت » .

وبذلك تضمن خطابه دعوة الناس إلى مبايعته ، وقد كانت دعواه رائعة بكل ما للروعة من معنى ، فلقد عرّف نفسه إلى الجماهير بأنه ابن الداعى إلى الله وابن السراج المنير ، وأنه ممن أذهب الله عنهم الرجس والأباطيل ، وهل هناك أحد أحق بالخلافة من شخص التقت به هذه الكمالات واجتمعت فيه هذه الفضائل .

ولما أنهى عليه السلام خطابه الذى لم يرد التاريخ إلا جزءاً يسيراً منه انبرى عبد الله بن العباس فحفز المسلمين إلى المبادرة لمبايعته قائلا : « معاشر المسلمين هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه » وتمت البيعة وهم (إنما يبايعون الله ورسوله .

ثم يستعرض فى خطابه مزايا أهل البيت وحقهم الصريح فى الأمر فيقول : (نحن حزب الله الغالبون وعترة رسول الله الأقربون ، وأهل بيته الطيبون الطاهرون وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله فى أمتـه) إلى أن قال : فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة ، قال الله عز وجل : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) . ثم يقول : (وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، فإنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص

على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون ، فستلقون للرماح ورداً وللسيوف جزراً وللعمد حطماً ، وللسهام غَرَضاً ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) .

ويجمع جمهور المؤرخين على أن البيعة تمت فى صبيحة الليلة التى وارى فيها جثمان أبيه ، وإن كان بعض المؤرخين قد وقع فى أخطاء تاريخية ، فقد ذكر العلامة المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى أن الإمام الحسن رضى الله عنه قد بويع له بالخلافة قبل وفاة والده ، ولما انتهت البيعة توفى والده ، وهذا القول مخالف لإجماع المؤرخين .

وحاول معاوية أن يدافع عن نفسه فقال :

« أما بعد فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ولم أشمت ولم آس ، وإن علياً أباك لكما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذى ... إذا ما القلوب ملأن الصدورا
جدير بطعن بدم اللقاء ... يضرب منها النساء النمورا
وما مزيد من حليج البحار ... يعلو الأكام ويعلو الجسورا
بأجود منه بما عنده ... فيعطى الألوف ويعطى البدورا

وتلمس فى هذه الرسالة دهاء معاوية وخداعه وخوفه من الإمام الحسن ، وذلك لمدحه وثنائه على الإمام على وإنكاره لما أظهره من الفرح بموته ، ولولا ذلك لما سجل لخصمه هذا الثناء العاطر .

هل تسرع الإمام الحسن فى قبول الخلافة :

يقول بعض النقاد إن الإمام الحسن تسرع فى قبول الخلافة فى مثل الظرف الذى بايعه فيه الناس بما كان يؤذن به هذا الظرف من زعازع ونتائج بعضها ألم وبعضها خسران .

يسارع إلى الجواب عن هذا التساؤل الشيخ راضى آل ياسين .

أما أولا – فلما كان الواجب على الناس دنيا الانقياد إلى بيعة الإمام المنصوص عليه كان الواجب على الإمام – مع قيام الحجة بوجود الناصر – قبول البيعة من الناس .

أما قيام الحجة – فيما نحن فيه – فقد كان من انثيال الناس طواعية إلى البيعة فى مختلف بلاد الإسلام ما يكفى بظاهر الحال دليلا عليه ، ولا مجال للتخلف عن الواجب مع وجود شرطه .

وأما ثانياً – فإن مبعث هذا الانعكاس البدائى عن قضية الحسن عليه السلام هو النظر إليها من ناحيتها الدنيوية فحسب والأنسب بقضية (إمام) أن يستنطقها الباحث من ناحيتها الدينية على الأكثر ، وكثير هو الفرق بين الدنيا والدين فى نظر إمام – والقضية من هذه الناحية ظفر لا خسارة ، وهى وإن تكن معرض آلام ولكنها آلام فى سبيل الإسلام ، ومن أولى من الحسن بالإسلام وتحمل آلامه وإنما هو نبت بيته .

وأما ثالثاً – فلم يكن الحسن فى رفعة مكانه من زعماء المسلمين وفى نسبه

الممتاز ومركزه من العلم بالذى يستطيع الفراغ وإن أراده عن عمد ولا بالذى يتركه الناس وإن أراد هو أن يتركهم ، وكان لا بد للرجات العنيفة فى المجتمع الإسلامى أن تتدافع إليه تستدعيه للوثوب إخفاقاً للحق وإنكاراً للمنكر ، كما وقع لأخيه الحسين عليه السلام فى ظرفه .

وأيضاً فلو ترك الناس وتجافى عن بيعتهم أو تركه الناس وأعفوه خلافتهم فلن يتركه المتغلبون على الناس ، وإنهم لينظرون إليه – دائماً – كشبح مخيف بما يدور حوله من الدعوة إلى الإصلاح أو النقمة الصارخة على الوضع التى كان يتطوع لها مختلف الطبقات من الساخطين والمعارضين والدعاة لله ، ولن يجد هؤلاء يومئذ ملجـأ يفيئون إليه خيراً من ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام المحبوب . وهل كانت الوفود التى عرضت عليه استعدادها لمناوأة الحكام الأمويين وإعادة الكرة[١] لاسترجاع الحق المغصوب إلا ظاهرة هذه النقمة الصارخة التى كان يعج بها المجتمع الإسلامى يوم ذاك ، وأنى لسلطان المتغلبين أن يستقر ما دام هذا المنار قائماً يفيء إليه الناس .

ولنتذكر أنه قتل مسموماً – ولماذا يقتلونه وقد صالحهم وترك لهم الدنيا برمتها لولا أنهم خافوه على سلطانهم ورأوا من وجوده حاجزاً يمنعهم من النفوذ إلى قلوب الناس – وهل ذلك إلا دليل انقياد الناس – فى عقيدتهم – إليه دونهم .

وهذا كله بعد الصلح وبعد ظهور جماعات من شيعته وغير شيعته

---

(١) الإمامة والسياسة .

ينكرون عليه موقفه من الصلح – كما سنرى فيما بعد .

ترى فكيف كانت قوته فى الناس لو أنه أبى الخلافة من أول الأمر وبقى شغف المسلمين إلى بيعته على حدته فهل كان من المحتمل أن يظل محور الأمل ومفزع الناقمين والمعارضين ثم تنام عنه العيون الحذرة على دنياها فلا تعالجه بما ختمت به حياته المقدسة أخيراً ؟ وهل كان إلاّ طعمة الاغتيالات الكافرة فى سنته الأولى بعد أبيه على أغلب الظن ؟

فأى منطق هذا الذى يرى من قبول الحسن للخلافة تسرعاً ؟ !

والخلافة فى أصلها مقام أبيه وميراثه وميراث أخيه على حد تعبير الإمام على بن موسى بن جعفر عليهم السلام .

وأما الزعازع التى لوّح بها هذا النقد . فما كانت إلا خطط المناوئين فى الكوفة وليس شىء منها بالذى يضير الحسن إبان نشاط الناس معه كما هو فى إبان بيعته . وأى خليفة أو زعيم ليس له مناوئون ؟ فلم لا يكون قبول البيعة هو الأرجح على مختلف الوجوه ؟ بل هو الواجب لضرورة الوقت وللمصلحة العامة ولإخفاق الحق[١] .

---

(١) صلح الحسن = (الإمام الشيخ راضى آل ياسين) .